الصناعة وأثرها فى كياننا القومى

للأستاذ محمد صبحى الدغشى

كانت الفكرة منذ أمد بعيد لدى كثير من الأوساط المصرية وعند معظم الأجانب المستوطنين فى بلادنا أن مصر ستظل بلدا زراعيا بحتا الا أن الحكم بهذا التخصص لا يخلو من التعسف لأن الصناعات المصرية قد تطورت وخطت فى أيامنا هذه خطوات واسعات فى طريق التقدم والتطور .

إن موقف مصر فى هذا الوضع شبيه بموقف الصياد الذى يذهب لاصطياد الوحوش الضارية ومعه سهم واحد فى قوسه .

هذا هو حال بلادنا تماما أمام الحالة الاقتصادية القادمة بين الأمم فهل نغامر فيها وكل ما نملك من السلاح لا يتعدى نوعا واحدا ألا وهو القطن .

لقد أضحت الزراعة فى الوقت الحاضر غير كافية لحاجات الأمم فلا غرو أن اعتمدت مصر من الآن فى حياتها على هذا المورد الغزير مورد الصناعات التى لن يقوم بدونها للمدنية أدنى رقى . لقد اثبتت الظروف الحاضرة أن مصر أصبحت تفتقر الى الصناعات افتقارها الى الزراعة وأنه قد آن أن نخلق من مصر بلدا صناعيا يساير مصر الزراعية جنبا الى جنب لنبنى حياتنا المقبلة على دعائم راسخة من العلوم والفنون ولنسير فى طريق الاستقلال الاقتصادى كما هو شأننا الآن فى حياتنا الاجتماعية . نريد أن لا نقنع بالوقوف فى أماكننا وإنما نريد أن نسير وأن نسير دائما فى طريق الصناعة والفنون ليحق لشباب النيل أن يساهم فى موكب الحضارة والمدنية .

حضرات السادة ، هل استطيع أن أحدثكم عن الصناعات والصناعة فى كل عصر صفحة الحياة ومظهر النشاط فاذا تقدم بها الزمن صارت رسالة الماضى الى الحاضر والمستقبل .

ومصر التى سبقت شعوب الأرض طرا بخسمت الشعور والعواطف والمعتقدات فى الصخر وعلى جدران المعابد وفى داخل القبور والمنازل فهيأ أجدادنا الفراعنة من كل أداة تحفة ومن كل عمل فن . مصر بلادنا وشيكة استعادة هذا المجد بفضل إيماننا ووحى مليكنا الشاب رمز العزة الوطنية ومنتهى الأمل فاروق الأول .

ففى مستهل عصره الحديث السعيد المديد شاء الله أن يتم لمصر عظمة نهضة البناء والاصلاح واحلال روح جديدة فى نفس كل مصرى لا من حيث الحقوق فقط بل من حيث الواجبات والتبعات أيضا . النهضة بشؤوننا الاجتماعية والصناعية من جميع نواحيها هى تركيز زعامة مصر فى الشرق العربى . هذه النهضة هى التى يجب أن تتجه اليها الآن جهود الشباب باعتبارهم

عماد البلاد فى البذل والتضحية. بالأمس محتم عليكم بذل الروح والجهود واليوم يحتم عليكم أن تضعوا علمكم ووقت فراغكم وعزمكم ونشاطكم فى خدمة مصر الحديثة .

قلت وقت فراغكم لأنى أهيب بوقت الدرس والتحصيل لأن الشباب منكم لا يستطيع أن يخدم البلاد الخدمة المثلى إلا اذا كان مزودا بالعلم الصحيح ومسلحا بثقافة حديثة هناك تبعات يفرضها المجتمع عليكم بحكم أنكم الشبان أى أنكم القوة والنشاط والجمال .

فالقوة من معانيكم وخصائصكم وليست هى قوة الجسم ، بل هى قوة الجسم وقوة القلب وقوة الايمان بالله .

ونشاط الشباب كذلك ليس قاصرا على النشاط المادى فحسب بل ولكنه يشمل النشاط المادى والمعنوى . وجمال الظاهر والباطن معا فأما الشاب الذى يعنى بظاهره ويحلى نفسه بالثياب الفاخرة والصور الجذابة من غير أن يعنى بجمال باطنه ومن غير أن يهذب نفسه و يصقلها فذلك انسان مجرد من أهم معانى الشباب وخصائص تلك القوة فى الجسم والنفس والقلب وذلك النشاط المادى والمعنوى . وهذا الجمال الصورى والروحى والخلق هى المثل العليا للشباب . وكما أننا نمارس الرياضة البدنية بأنواعها لتقوية أجسامنا فلزام علينا أيضا أن نمارس أنواع الفنون التى تهواها والعلوم التى ترضاها والصناعات التى تليق بنا لنكون من الفن والعلم والصناعة قوة فى القلب وقوة فى العقل ولنستطيع بالفن والعلم والصناعة أن نكافح فى معترك الحياة ولما كانت الصناعة أسمى مظهر من مظاهر العقل الانسانى وأدق مقياس لتطور مدنية الشعب . لذلك أود لشباب العمل أن يهوى الشباب الصناعة وهى عمل شريف وميدان فسيح ما دام القائمون بها يعملون بكل عزم واخلاص وأمانة ولا نجاح للخمول فى الصناعة ولا صناعة مع خمول بل وليس للخمول حظ مع الحياة لأن الحياة نضال مستمر لا يفوز فيها الا العامل النشط . والصناعة فى حاجة قصوى الى التطور والتجديد ولا يتوفر ذلك الا لحب الاطلاع لاستنباط الطرق الحديثة والوسائل المبتكرة المؤدية الى نجاح الصناعة ورواج المصنوعات فى مصر وغير مصر .

وأما القول بأن الصناعة عمل لا يصلح الا للعمال وحدهم ولا يجوز بمثقف أو عظيم الاشتغال بها حتى ولا التفكير فيها فكلام لا معنى له لأن بقاء الأمم موقوف على الصناعات فى حياتها و جميع شؤونها الاجتماعية ونظرة بسيطة الى ما حولنا والى الحياة التى نحياها فى بلادنا بل فى بلاد العالم نرى صناعات فى صناعات .

أما النشاط الصناعى فى مصر فانه مازال فى دور البداية لأن عبء تركيز الحركة الاقتصادية القومية ما زال الكثير منها واقع على الحكومة ولا نزاع على احتماله منذ أعلن استقلال البلاد فى سنة ١٩٢٢ على الرغم من أن الادارة الحكومية لم تكن وقتئذ على استعداد للقيام بمثل هذا

العبء الثقيل . الواقع أن السلطات العامة ظلت من سنة ١٩٢٢ تعمل من ذلك الحين وهى تكاد تنصرف عما له ارتباط بالشؤون الصناعية بأى مسائل أخرى غير ما كان منها متعلقا بالزراعة وتصدير الانتاج الزراعى وكل ما تعدى هذا الحيز الضيق كان يعتبر أمرا ثانويا كان تابعا للسياسة الزراعية وخاضعا لأحكامها وضروراتها ومادام الأمر كذلك فلم يبق محلا للاندهاش اذا عرف أن من تولوا أمر الصناعة حين اعتزمت مصر تحويل سياستها الاقتصادية نحو الوجهة القومية كانت تنقصهم الأمانيد الفنية وليس بجانبهم وقتئذ من شبان مصر الاخصائيين العدد الكافى للنهوض باعباء المهمة الجديدة الملقاة على عاتقهم الخاصة بالحالة الاقتصادية العامة بالشؤون الصناعية بوجه خاص .

ولما كانت الأمم العظمى فى يومنا هذا لا يحق لها أن تزعم أنها بلغت نضجها أو قطعت شوطا بعيدا من مراحل النجاح ما لم يكن لها اقتصاد صناعى وطيد الأركان .

ولا يصعب ذلك لأن النشاط الاقتصادى والعلمى والعقلى فى مصر إن لم تعضدهما الصناعة متضى علينا أن نتهى جامدين لا نتعدى حدود طورنا هذا . وليس هناك من ينكر أن فى وسع البلاد غير الصناعية أن تتعامل مع غيرها بفضل سهولة التبادل وسرعة ما تحتاج اليه من المنتجات وهذا كان حال مصر قبل الحرب العظمى الأولى يوم كان اقتصادنا زراعيا بحتا وما برحت بلادنا تفعله إلى حد كبير غير أن ذلك لا يتيسر إن لم يكن للبلاد إنتاج زراعى وافر يمكننا أن نشترى من البلاد الأجنبية جميع ما نحتاج اليه من المنتجات الصناعية . هذا كان شأن مصر قبل ازدياد عدد السكان و يوم كان دخلها الزراعى كافيا لسد حاجاتنا المتزايدة إلا أن هذه الحالة ما لبثت أن تبدلت من نحو ثلاثين سنة تبدلا تاما بسبب تزايد عدد السكان وازدياد حاجاتنا كثيرا على دخل البلاد الذى أخذ يتناقص فى مجموعه بنسبة هبوط الأسعار الدولية فتناقص فى أثره دخل كل فرد من أفراد الأمة المصرية هذا فضلا عن أن هناك عددا متزايدا من الشبان أصبحوا لا يجدون لهم عملا فى الزراعة أو التجارة أو كانوا يتوقون ولا سيما خريج الجامعة والمعاهد العليا الى الاشتغال بما هو أرقى من الأعمال الزراعية وأوفر ربحا يتفق و إجازاتهم العلمية مضافا الى هذه الضرورة المادية طموح الشباب بحق إلى قسط أكبر من الاستقلال الاقتصادى و رفع المستوى الاجتماعى .

فهذه الرغبات والمطامح أى إنماء الدخل القومى وتوفير رفاهية الأمة عامة وطبقات العمال خاصة والسعى فى تشغيل المتعطلين من شباب الأمة فى أعمال أرقى من الزراعة من الوجهة الاقتصادية والفكرية والطموح الى الاستقلال الاقتصادى والرغبة فى ترقية العمال

من الوجهة الاجتماعية واستقلال جميع الثروات الأهلية وترويج الإنتاج الزراعى محليا كل هذه الأشياء لم يكن لها سبيل إلى بلوغها إلا عن طريق الصناعة كما هو شأن مصر اليوم .

والصناعة لا شك هى أسمى مظاهر النشاط الاقتصادى ونطاق العمل فيها لا يقف اتساعه عند حد إذ أن هذا الاتساع لا يتوقف أمره كما هو الحال فى الزراعة على عنصر ثابت بعد الأرض لا يتغير أى المساحة الصالحة للزراعة بل على ما فى الشباب من قوى كامنة يمكن استخراجها وعلى ما تحتاج إليه البلاد من مصنوعات وما فى مصر من خامات وأنوال والصناعة ورفاهية العمال عامل من عوامل تكاثر السكان وأعظم مصدر للنشاط الابتكارى كما أن رفاهية العمال تؤدى حتما إلى ازدياد الحاجات وتوفر المال وهما العاملان الضروريان للإنتاج .

فلهذه العناصر المادية والمعنوية تتركز أسباب النهضة الصناعية فى مصر وهى التى تبرر قيام الصناعة فى البلاد وهذه العناصر مع مزايا الصناعة الاقتصادية والاجتماعية هى التى يتعين على الشبان من أجلها أن يوطدوا العزم على تدعيم منشآتنا القومية .

ولو نظرنا الى هذا الموضوع من الوجهة العامة لأمكننى أن أجزم أنه لولا الصناعة لما تمكنت مصر من المحافظة على توازنها الاقتصادى وأنه بفضل الصناعة تستطيع الشبيبة المصرية أن تنظر إلى المستقبل بعين قريرة وأن تنشئ لها فى الحياة طريق العزة والمجد .

هذا دليل على مبلغ أثر الصناعة فى الاقتصاد القومى أما أثرها من الوجهة الاجتماعية فإنه يتعين على من يعمل فى فرع من فروعها أن يكون له من الاقدام وبعد النظر والمثابرة على العمل واحتمال التضحية وملكة الابتكار والثقافة الفنية والخبرة ما يزيد أضعافا مضاعفة على ما يحتاج اليه المشتغل فى غير الصناعات . كما أن متاعبنا نحن الصناعيين أكثر من متاعب غيرنا ولا يمكن التغلب عليها إلا بدوام الاعتماد على هذه المزايا ، ولهذا فإن من المجازفة أن يقدم الشباب على الأعمال الصناعية دون أن يكونوا مستعدين لها الاستعداد الكافى فقلما حقق فيها بسبب عدم الاعتماد على تلك المزايا .

لأن تدعيم المنشآت القومية لم تكن مجرد شعور أو رغبة بل يلزم أن يتوافر فينا عناصر جمة لخلق هذا التدعيم وأهم هذه العناصر . الأخلاق ، الفن ، العلم ، حب العمل والصناعة

ولما كانت النهضات التى قامت بها أمثالنا من الأمم لم تكن لها آجال لكى تنمو وتزدهر لذلك يتحتم علينا أن نسير فى أقصر الطرق التى سارت عليها الأمم للنهوض ، ويجب أن لا يتبادر إلى الذهن أن التطور هو السير البطىء أو الجمود كما يجب أن اقول أن الطفره

ليست هى الطيش فالتطور هو الانتقال من الجمود الى العمل بطفرة نحو الهدف نحو المثل الأعلى ، إن مصر بما حباها الله من مكان وما وهب شبابها من أيدى صناع وقرائح وأذهان هى جنة الدنيا وكنز الزمن وأنها قلب المشرق ينبض بالاسعاد فى طول البلاد وعرضها فوطدوا أيها الشباب دعائم صناعة مصر و روجوا منتجات مصر وارفعوا مكانة مصر لتتبوأ مصرنا مكانها السامى كاملة ذات سيادة وعظمة بين الأمم . هل أستطيع أن أحدثكم عما أعتقد من تبعات الشباب نحو مصر ورسالة مصر للشرق ومصرنا وقد انبعثت منها المدنية الأولى على ضفاف النيل العظيم ، تلك المدنية التى سادت الدنيا وبهرت العالمين ، كان آباؤنا قواد المدنية فحملوا شعلة الفنون والعلوم والآداب سنين طويلة أصبحنا مقلدين فى كل شئ وناقلين عن غيرنا كل شئ فكرامتنا تقضى علينا أن نشجع الشباب فى معاهدنا وفى جامعاتنا وفى مصانعنا ليساهم شباب مصر فى تقدم الفنون والعلوم والرفاهية لبنى الانسان .

أيها الشباب إن رسالتكم ستسود وإن بوادر هذه الرسالة قد بدت تتحقق وما يشاهد هنا وهناك من آيات النهوض وأمارات التوثب وما فيكم من عزم وطموح الى المثل الأعلى.

وآية الآيات لعصر سعيد انبثقت أنواره مولاى الفاروق المفدى الممتلىء بحب الشباب المعتز بإيمانه عاهل لواء مجد مصر الممكن الشرق من السيادة والعظمة أناشدكم أيها الشباب الطامح أن تعيدوا إلى الوطنى كرامته وتشقوا لنا فى الحياة طريق العزة والقوة والمجد و إنما يكون ذلك إذا أنتم عقدتم النية وأمضيتم العزيمة فأرونا نياتكم فى أعمالكم وعزيمتكم فى جهادكم . إخوانى الشباب أرغب أن أهمس فى آذان حضراتكم بكلمة ولو كانت فيها غضاضة على أنفسنا جميعا أنه رغم ما وطدناه من عمل ما زلنا فى أماكننا بينما إخواننا شبان أوروبا وأمريكا شباب يقظ يواصل العمل فإلى المجد علموا و إلى العلى عاش الملك .

محمد صبحى الدغشى

خبير الصناعات بإدارة الفلاح بوزارة الشؤون الاجتماعية